بيوت وحواديت

قصص قصيرة جدا

بيوت ولدت فى بر مصر ويبدو لكل منها حكاية خاصة

بيت السنارى
وحكايته الغريبة

في مواجهة جامع السيدة زينب... وبالتحديد فى حارة مونج يبدو للمارة بيت قديم متوار. هذا البيت هو بيت السنارى الذى يقبع في نهاية الحارة والذى لايزال أهل حي السيدة المبارك يتذكرون حكاية صاحبه إلى اليوم.

فقبل نهاية القرن الثامن عشر.. وتحديدا فى عام ١٧٩٤م قرر إبراهيم كتخدا السنارى أن يستقر فى بيت خاص به فى القاهرة الجميلة على عادة كبار التجار فى عصره.

ولأنه تاجر توابل من أهل دنقلة... فقد أراد لهذا البيت أن يماثل بيوت الشهبندارات و لتجار الذين التقى بهم فى القاهرة.

وكيف لا يكون له دار تدل عليه وهو القريب إلى قلب مراد بك المملوكى حاكم مصر الفعلى فى هذا الزمن.

وبالفعل ومن هذا المنطلق.. يبدأ السنارى فى تنفيذ حلمه الذى اعتقد أنه سينسيه سنوات الشقاء التى مر بها والتى حاول فى أثنائها أن يتكسب قوت يومه ولو بمهن متواضعة للغاية أخذت من رصيده النفسى أكثر مما أعطت.

كما أنه فى هذا الزمن الذى شـهد أفول دولة المماليك لم يكن هناك شىء واحد أو شخص واحد يشعر بالاستقرار فى مصر.

فقد تخلى المماليك عن دورهم الحربى منذ زمن وعاشـوا فى البيوت المصرية يحكمونها على طريقتهم.

فقليل منهم من شعر بالانتماء إلى هذه الأرض وكثير منهم من تجمد ورضـى لحياتـه بنمط رتيب فأغلـق على مصر وعلـى طموحه الحربى الأبـواب فى وقت كان العـالم يتغير فيه وأوربا تخطـو بل تركض إلى الأمام.

والسنارى كغيره ممن يعتقدون أن الحياة لابد أن تعطيهم ما يتمنون إذا نجحوا فى طرق أبواب السلطان وإيجاد ملاذ إلى جانبه.

فالمهم مرضاة مراد بك وحاشـيته لتتحقـق كل الأمنيات والذى كان هذا البيت واحدا منها.

وأخيرا ينجح السـنارى فى بناء هذا البيـت الفخيم ويدخل أخيرا داره ويغلق أبوابه ليأتنس بدفء الحوائط التى ربما تنسـيه أيام الشقاء إلا أن الأمل على ما يبدو ظل أملا لا يدرك.

فالبيـت الذى يعد تحفـة للناظرين والذى وصفـه لى وجدى عباس مفتش الآثار بالمنطقة عند زيارتى له يتكون من صحن أوسـط مكشـوف تحيـط به معظم غـرف وقاعات المنزل، ويتوصل إليه بواسـطة المدخل الذى يطل على حارة مونج ويليه ممر منكسـر لنصل إلى الصحن الأوسط المكشوف ومنه إلى المقعد الصيفى الذى يعلوه تختبوش.

ومعظم الأجزاء المهمة فى البيت واضحة للزائر مثل قاعة الاحتفالات الشتوية التى يعلوها ملقف الهواء وهى حيلة معمارية يلجأ إليها المعماريون المصريون للاحتفاظ بالهواء المنعش فى الليل وأول النهار داخل البيت للتخفف من وطأة الحر الشديد كخزان للترطيب الذى يعد من أكبر ملاقف الهواء فى منازل القاهرة الإسلامية ويوجد فى الدور الأول ويجاوره أيضا حمام على الطراز الإسلامى. أما بقية الغرف فتعتبر غرف خدمات ومرافق.

والبيت بمجمله لا يوصف فقط بأنه تحفة أثرية ولكنه فيما يبدو قد توفرت له كل الظروف لكى يكون تعبيرا عن لحظة فرح واستقرار لساكنه الذى أراد لهذا البيت أن يكون ملجأ له من ذكريات الماضى المرة.

وتحدث المفاجأة فبعد زمن قصير وأيام أهون من أن تعد يدخل نابليون بر مصر غازيا لأراضيها وهو ما أصاب البلاد بحالة من الخوف والتأزم لم يعشها المصريون من قبل.

فينتشر الرعب فى البلاد ويلجأ الجميع إلى ديارهم التى أصبحت رمزا لأرضهم المصرية وإن كانوا مع هذا لايتنازلون عن مقاومة هذا الغازى الجديد والذى جاء على غير موعد.

إلا إن نابليون وأمام هذا الرفض الشديد لوجوده لا يكتفى بغزو المدن المصرية فيقرر جيشه أن يغزو حتى البيوت الجميلة الآمنة ومنها بيت السنارى بالسيدة زينب.

فيستولى الفرنسيون على المكان ويرغمون السنارى على الخروج من بيته ليسكن العلماء المصاحبون للحملة البيت وخاصة العالم مونج الذى اختار أن تبدأ فيه التجارب والأبحاث التى ظهرت ودونت كملاحظات علمية فى موسوعة وصف مصر.

وهكذا وبين يوم وليلة يجد الناس هذا البيت قد أصبح مقرا للتجمع العلمي بعد أن يستقر فيه العالم مونج بهذه الكيفية، ويدخل البيت التاريخ بوجود هذا العالم الذى كان، وكما أشار كريستوفر هيرولد مؤلف كتاب «بونابرت فى مصر»، من أعظم الشخصيات تعددا فى الكفاءات فى تاريخ العلم.

فقد ظهرت موهبته الخارقة فى الرياضيات وأنشأ فرعا جديدا فيها وهو الهندسة الوصفية. وعمل فى لجنة الموازين والمقاييس والاستاتيكا الجوية واشترك فى تطيير البالون فى الجو وهو ما كتب عنه الجبرتى كثيرا فى «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» أما اللجنة العلمية فكما تؤكد المصادر الرسمية أن لجنة العلوم والفنون كانت مؤلفة من ١٦٧ شخصا ترك اثنان منهم فى مالطة.(٢٥)

ونعود إلى السنارى الذى اعتبر ما حدث هو امتداد لسوء الحظ والتعثر الذى صادفه فى بداية حياته خاصة إن بيته كان ضمن ثلاثة بيوت وقع عليها الاختيار لتكون مقرا للمجمع العلمي الذى شهد الكتابات الأولى التى خطها العلماء الذين أصدروا كتاب «وصف مصر الذى اكتسب موقعا تاريخيا غير مسبوق.

ويشاء الله تعالى أن يقاوم المصريون هذا الغزو الفرنسى ويثبتوا أنهم ليسوا مجرد رعايا لأية دولة تحكمهم وأنهم ليسوا مجرد أناس قد نسوا حضارتهم، ويستيقظون بين فترة وأخرى فى شكل إفاقة مؤقتة تصنعها الظروف.

ويذهب المصريون أثناء مقاومتهم للفرنسيين لما هو أبعد من هذا ويثبتون أنهم ينتمون إلى أمة واعدة، ويصمد الرفض المصرى فى ثورتى القاهرة الأولى والثانية بشكل يرغم الفرنسيين على الجلاء. وتخرج الحملة الفرنسية من عقر دار السنارى ويأتى الزمن الذى يكون لزاما عليه أن يقاتل من أجل استرداد بيته وهو ما يحدث بالفعل.

ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ففى العام الذى يشهد رحيل هؤلاء الغرباء عن بيته يشهد أيضا رحيله عن هذه الدنيا تاركا كل شىء وراءه.

فمن عجائب الأقدار أن يرحل السنارى فى نفس العام الذى أصبحت فيه الفرصة سانحة وكأنه بنى هذا البيت المدهش لغيره ولم يكن من نصيبه حتى ولو تصالح مع الدنيا كلها ولم يكتف بمداهنة مراد بك وحده من أجل حلمه الكاذب. ويموت السنارى ونتوقف عند هذا البيت الذى يحمل فى رأيى معانى شديدة المصرية.

فهذا بيت قد بنى فى نهاية الحكم العثمانى ليثبت أن منطق المدنية والمواطنة كانا موجودين فى القاهرة وقد تزينت بطابع مميز فى العمارة منذ وصول الإسلام إليها.

فبالاقتراب من المشهد وكما يحكى د/ ثروت عكاشة نجد أن اختيار

الخلفاء الفاطميين قد وقع على منطقــة الجمالية لبناء القصور، وكانت تبنى من حولها الدور.

فإذا كانت منازل الفسطاط تتألف من إيوانات تسبقها شرفات تحف بفناء مركزى مكشــوف يتيــح قدرا من الظل طوال اليــوم.. ففى عمارة منازل القاهرة من الطرز المعمارية فى بناء المنازل ما استغرق ستة قرون أوســبعة ولكن أول ما يســترعى انتباهنا هو الصحن الذى استخدم فى تكييف حرارة الجو. ذلك أن الهواء البارد يهبط إلى أدنى مســتوى ليلا ثم لا يلبث أن يتسرب إلى الحجرات ويظل محصورا بين جدران الصحن حتى ساعة متأخرة من النهار وكأنه خزان للترطيب.(٢٦)

أما بالنســبة لنظام الميـ ه الجارية فقد كان ببعض الدور مياه ساخنة وبــاردة مثلما كانت عليه الحال فى الحمامــات العامة وقد ثبت وجود حمامــات بالفعل فى منــازل عديدة منها بيت الســنارى ولعل ما أقول يؤكد الخصوصية واللمســات المصرية وليثبت أن بيت السنارى كان بيتا مرتفع المقام بين البيوت العادية

وفى النهاية نكتفى بهذه القصة الغريبة التى شهدها بيت السنارى وفى الحى الــذى دارت فيه الكثير من القصص والحكايات التى تحكى عن بر مصر.

□□□

بيت القصص والمفارقات

لا نملك في هذه الحكاية إلا أن نقلب الكف بالكف ونحن نحكي عن بعض تفاصيلها. فالحكاية وقعت في القاهرة العتيقة في زمن الاحتلال الإنجليزي وأبطالها ليسوا من الفلاحين أو المعممين أو المطربشين.

فالبطل وللعجب هو جاير أندرسون الطبيب الإنجليزي الذي جاء إلى مصر المحروسة والتحق بالعمل بالجيش وكان يتمتع بطبيعة مغامرة لا تعرف الاستقرار.

وهذا الرجل اللغز استطاع في بداية العشرينيات من عمره أن ينهي دراسته للطب بأسرع وقت ممكن حتى وكما يقول يتفرغ للحياة. ولكن هل تحتاج الحياة للتفرغ ولنغمة معينة من التفاهم؟!.

أعتقد أن السؤال نفسه قد واجه جاير أندرسون بعد سنوات طويلة من العمل وقد اعتزل كل شيء ليجلس خلف مشربيات بيت الكريتلية أجمل بيت في القاهرة العتيقة.

ونتوقف عند بيت الكريتلية... فالمنزل قديم وهو ابن لقاهرة المعز وجار لمسجد أحمد بن طولون حيث لا يزال للتاريخ عبق وللمساجد شموخ وللمصلين مسك مصري لا ينسى.

إلا أن هذا البيت الأسطورة له عبق خاص يرشح حكايته للاستمرار والتناقل عبر الأجيال.

فكما حكى لى حفيده ثيو: التحق جدى بالجيش المصرى وعمل لسنوات طويلة فى السودان والصحراء الغربية وتونس وليبيا، ولكنه بعد كل هذا قــرر أن يعتزل وأن يهب ما تبقى له من عمر لهذا البيت فقد كان معروفا عن جدى حبه للتحف والفنون الإســلامية وعندما طلب أن يسكن فى هذا المكان كان يعرف فى قرارة نفســه أنه سيتركه ذات يوم للحكومة المصرية فأراد أن يترك للمصريين متحفا يحكى عن بلادهم الجميلة.

ويبــدو أن القاهــرة باحتمالها للقديم والحديث وبتجاور المســاجد العتيقة والحارات الشــعبية مع المبانــى التى تتأثر بالطابع الأوربى قد أثرت فى نفس أندرســون منذ عــام ١٩٠٦م نفس عام وصوله إلى القاهرة وهو ما خطف قلبه وعقله.

وإن كان للماضى وكما يبدو نصيب أكبر من الحاضر الذى عاشه. فقد وقع فى هوى القاهرة العتيقة ولهذا لم يكن لفندق شــبرد الذى كان أول مكان ســكنه مكانة كبيرة لديه. فلم يعرف فى شــبرد معنى الاستقرار برغم احتفاظه بتفاصيل كلاســيكية أوربية كانت من الممكن أن تواسيه فى بعده عن وطنه.

فغرامه بتل يشكر يبدو للبعض وحتى أهالى حى الخليفة أحيانا غير مبرر فالأمر أكبر من ضخامة بناء مســجد ابن طولون وأكبر من الإطلالة المصرية التى عرفها فى وجه فتاة كانت تحتفظ بابتسامة وكأنها أطلقتها تحية لنور الشمس المصرية وهى تطل من شرفة منزلها.

وبرغم أن المشهد كان فى البداية يعتبر مجرد مشهد عابر فى عينى أندرسون فإنه قد كتب له الاستقرار داخل وجدانه حتى إنه بعد تسعة

وعشرين عاما من زيارته الأولى للمكان ومن اعتزاله كل مهامه العسكرية عاد يبحث عن منزل فى نفس المكان المجاور لمسجد ابن طولون.

أمـا قصـص الدرويش والكلمـة للحفيد ثيو الذى جـاء إلى مصر ليشـارك فى ترميمات هذا البيت الذى كان يسـتمع جدى إلى صوته العـذب وهو يقرأ القرآن الكريم، وما حـكاه عن عمره الطويل الذى امتد إلى الثمانين وجلسته بجانب مقام سيدى هارون المجاور وسلوك واعتقادات الناس لهى جميعها أحلام ورؤى وتفاسـير شعبية لأهل المكان الذين عاشوا فيه.

وبيـت الكريتليـة يماثل كل البيـوت الأخرى فى بـر مصرحيث عاش به العديد من البشـر. فقد جـاء كل واحد منهم بحكايته وبصمته وكأنما قرر وبطريقة لا شعورية أن يعطى المكان حياة أخرى تناسبه هو شـخصيا إلا إنه فى الحقيقة لا يصبح أكثر مـن زائر للمكان الذى يأبى على الذوبان فى كيانات أخرى.. وكأن هذا المكان هو مصر.

ولأننا لا نريد أن نعطى أحكاما مسـبقة فالواقع يقر أنه عندما جاء جاير أندرسون ليستريح استراحة المعتزل بعد سنوات العمل فى الطب والجيش لم يسـتطع إلا أن يهب ما تبقى من سـنوات عمره لهذا البيت وبيت الكريتلية كما تقول المعلومة التاريخية قد بنى فى القرن السادس عشر وهو ليس منزلا واحدا بل منزلين.

وقد ظهر أول البيتين فى هذه الدنيا فى نهاية القرن السادس عشر. وأمـا البيت الآخـر الذى انضم إليه فيما بعد فقـد بنى فى بداية القرن

السـابع عشـر في عصر الـولاة العثمانيين ويقال إن أجيالا من البشـر سكنته وإنهم كانوا يعشقون المحروسة وإلا لما عاشوا بها ، وتذكر بعض الكتب أسماء مثل آمنة بنت سالم وابن الجزار وسيدة من جزيرة كريت كان لسـكنها هذا البيت السبب في تسميته باسم بيت الكريتلية والذي حرف فيما بعد إلى بيت الكريدلية.

فهذا البيت مثله.. مثل الحلم الجميل الذي يأتي في الليالي البيضاء مثـل فتاة جميلة كأخت القمر تبدو مشـغولة البال بطيف الحبيب كل سـاعات النهار.. مثل الحكايات الأسطورية التي كان أندرسون يكتبها في سـاعة العصاري من كل يوم مثل كل ما يجعل كل شيء يبدو جميلا ومبهرا في بيت الكريتلية.

فهنا تهدأ الروح ونتذكر أحلامنا وانكسـاراتنا وأن الحياة قصيرة. وأن الله وحـده يعلم البداية والنهاية. وأنـه لا يمكن الحصول من وراء هذه الحياة سوى على حق الحياة نفسها. فهنا فهم كل من عاش في هذا البيت أن الحياة ليست سوى حلم قصير ينتهي. ولا دليل أكبر من وجود هذه الجدران من قبل جاير أندرسون.

فهـؤلاء جميعا جلسـوا في صحن الدار المكشـوفة في ليالي الصيف المقمرة واستمعوا إلى خرير الماء للسبيل الملحق بالبيت. بل وارتاحوا على مقاعده واستمتعوا وسط نسمات الهواء بقصص حب وعطف كما عرفوا الكره والوفاء والغدر. وبعضهم كتبت لهم السـعادة في هذه الحياة وبعضهم خرج منها مدحورا بقلب لا يعرف أن الغد يوم آخر ربما أفضل بكثير.

المهـــم إنها حكايات كثيرة تتعدد بتعدد البشـــر وتدور بجانب كل هذه المشربيات المتعددة الأشـــكال والقمريات التى يطل منها نور القمر وسلطان الشمس.

ففي السلاملك أو قاعة الرجال يوجد الكثير من الدواليب الغائرة أو الخوارســتانات كما يطلق عليها بالفارسية. وهناك الصناديق الخشبية المطعمة بالصدف والأطباق النحاسية ذات المباخر فهنا وعلى هذه المقاعد كانت تناقش أمور السياسة والتجارة في زمن الطرابيش.

وأمـــا الحرملك فهو على الجانب الآخر يشـــي بعطر امرأة مرت من المكان. فهذه المشربيات والدواليب المذهبة شاهدة وحتى كرسي العروسة لا تجلس عليه إلا جميلة تريد أن تتزين.

فـــأدوات الزينة والصناديق هي ملكة المكان. وأما هذا الممر الســـرى الذى يقع في جانب الغرفة فهو أســـطورة كبيرة فهذا الممر السرى الذى يوجـــد في جانب خفي من غرفـــة الحرملك هو فى الواقع ممر يؤدى إلى الخارج والغرض منه هو الهروب خارج الجدران.

فهـــذا البيت ربما شـــيد في فترة عاصرت عدم الاســـتقرار فلم يكن هنـــاك بد من وجود ممر خفـــي للخروج في حالة وقـــوع هجوم مباغت علـــى الحرملك، وربما كان هذا الممر جزءا مـــن معمار البيوت الكبيرة وقتهـــا، ولكن من يا ترى هرب من هذا البيت وإلى أين ذهب؟ وهل عاد حيا أم قتله الأشرار فى طريقه للخلاص بحياته... حكايات وحكايات الله وحده يعلمها.

فمـــن بين الأســـاطير أن هـــذا البيت محروس وأنه قد شـــهد قصص حـــب جميلة فاقت قصة روميو وجولييت. فهذا هو الخيال الذى يختلط بالواقـــع. وأمـــا الواقع فهو يفرض ســـؤالا آخر: وهو كيـــف كان يقضى أندرســـون يومه وسط هذه الغرف؟ وهل كانت حياته مجرد انتقال بين السلاملك والحرملك أم إنه اختار غرفة بعينها ليسكنها؟ وترى ما هذه الغرفـــة ولماذا اختارها بالذات؟ ولماذا هذا الاختلاف والتعدد بين غرفة دمشـــقية وأخرى فارسية وواحدة تركية وأخرى صينية ولماذا يبدو هنا الكل فى واحد؟ وماذا يحدث بين الصباح والمســـاء؟ فلعلنا نطلق لأنفسنا الخيال ونرى كيف كان يعيش أهل الدار.

❑❑❑

القصة الأولى
دمشقيات وأخت القمر

يتنفس الصبح ولا تجد الشمس ما هو أروع من الغرفة الدمشقية لكى تتسلل إليها عبر ستائرها فقد جاءت الشمس لترى هذه الغرفة ولعلها زارتها لتكمل جزءا من كيانها فهذه الغرفة تشعرنا بأننا فى بر الشام فهنا السرير الصغير الشديد الزخرفة. هنا جدران كسيت بالخشب والنقوش البارزة ذات الألوان الدافئة. وهنا أبيات من الشعر العربى كتبت بماء الذهب فى مدح الرسول الكريم ﷺ :

يا مفخر الرسل الكرام لكونه   أضحى الجميع ببعثه مختوما

فهذه غرفة وكما يبدو كانت تسكن من قبل إحدى البيوت الدمشقية القديمة. وهذا التكوين الصغير للغرفة ربما يخص فتاة جميلة لها ضفائر طويلة تكتحل بكحل عربى وتعد الأيام فى انتظار الغد.

ففى يوم المقابلة الذى تجتمع فيه نساء العائلة تجدها تجلس فى صحن الدار مع بقية النساء وإن كانت تبدو مشغولة البال ذاهلة عن أى طعام وشراب.

وهى لا تعير اهتماما لكل الأطباق الدمشقية التى لايمكن مقاومتها. فهى على غير حال أهل بيتها الذين يعشقون أطايب الطعام.

فلماذا تبـــدو بعيدة بخيالها عن البيت الذى يســكنه الجد والجدة والأب والأم والأخـــوة؟! ولماذا لا تتحدث كثيرا وهـــى وردة الدار التى تفتحت فى ســنوات قليلة وتركت الطفولـــة إلى الأنوثة؟! كثيرة كثيرة هى علامات الاستفهام.

إلا أن ما نعرفه يقينا إنها اليوم تسكن هذه الغرفة وغدا ستكون فى مكان آخر فى بيت زوجها.

وســتكون هذه الغرفة الأنيقة أو غرفتها الدمشقية من ضمن رصيد جهازها عندما تذهب إلى بيت زوجها ولكن كيف ســتكون هذه الأيام؟ وهل ســتجد السعادة أم أن سوء طالعها ســيجمعها بإنسان لا خير فى الارتباط به؟... الله تعالى وحده مقلب القلوب يعلم.

❑❑❑

تركيات
وساعة العصارى

في ساعة العصارى وكما يحلو لى أن أتصور كان أندرسون يمر بمتحف البيت الذى يضم التماثيل الفرعونية والطاسات النحاسية ودوارق الزجاج المصرى ليجلس فى الغرفة التركية المذهبة التى تنتمى إلى الطراز الأوربى، والتى يمكن أن نرى شبيهة لها فى الكثير من البيوت المصرية فى زمن الجدود والجدات.

فقد تعاطف الفن التركى مع الطراز الأوربى فشخصية التركى المحاربة كانت تتأثر بالفن الفارسى فى البداية وإن كانت لهم موضوعاتهم الشديدة المحلية إلا أن هذه الشخصية ما لبثت أن تأثرت بالطرز الأوربية واعتبرتها إحدى التفاصيل المحلية الخاصة بها.

المهم إنها غرفة تقبل وجود الآخرين ولا تحمل خصوصية غرفة القراءة أو غرفة الكتابة التى تبدو شديدة الخصوصية ففى غرفة القراءة لا مكان للكتابة والعكس صحيح فى غرفة الكتابة حيث لا مجال للقراءة فالمساحات صغيرة ومقدرة لغرض واحد والتنوع مقصود فلا تجتمع القراءة والكتابة فى مكان واحد حتى لا يتسرب الملل إلى رواد الغرفتين.

وأما الغرفة التى تجاورهم فهى غرفة صينية. فلا يســتطيع أحد أن يقتلــع التأثير الصينى من الفنون الشــرقية فالخزف والحرير والإتقان الصينى يفرض نفسه.

فهى حضــارة لا تتبدل ولا تترك مكانها لأخريــات. فالصين تلزم نفســها بفنها كما تلتزم مصر بكل التفاصيل الشــعبية العبقرية. والفن الصينــى مقبول فى أى مكان فى الدنيا. فهو صاحب خصوصية شــديدة ولا يقبل أن يغزوه فن آخر أو يفرض نفسه على أرض لا تقبل وجوده.

❑❑❑

فارسيات
والليالى البيضاء

مثل

الحلم الجميـــل فى الليالى البيضـــاء... مثـــل كل المنمنمات التى أبدعتها يد بهزاد فنان إيران الأول فى كتب فى روعة الشاهنامة «كتاب الملوك» والتى تتمازج فى فن لتعبر عن مشـــوار اسمه الحياة تأتى هذه الغرفة الفارسية لتكون الملاذ الأخير لكل من ثقل قلبه بالهموم.

فهذه المقاعد والسرير المرتفع لا تصلح إلا لأصحاب المقامات الرفيعة والقامـات المرتفعة فى الفن والحب والحيـــاة، وهذا اللون الأحمر الذى يفرض نفســـه على المكان فى جرأة هو لون الشمس والنبلاء والحب كما يقول مولانا جلال الدين الرومى أهم شاعر فى تاريخ الصوفية.

فربما ســـكن هذه الغرفة التى اســـتعيرت من أحد بيوت طهران أو أصفهان فنان فارســـى هو فى حقيقته من حفظة الجمال والفن والتاريخ فهـــو صاحب ذاكرة يســـتعصى عليها فقد أى من تفاصيـــل كل ما كان، وخيال يســـابق الفجر وفراســـة مؤمن يحب الخير ويســـتلهم خطواته ببركة الرسول ﷺ.

وهو يتوكل على الله حق توكله، ومن توكل على الله فهو حسبه. فمن النوافذ الفارســـية الأصيلة يكون الدعاء بقبول خير هذه الدنيا ومحاولة إقناع النفس بقبول المصير.

وســوف تمر الليــالى القاتمة. كما يعتقد الإيرانيــون إذا ما واجهوا أزمــات. ليأتى يوم فى روعــة الثلوج يلمس فيه أرواحنــا هواء كالذى يمر بحدائق شــيراز. فبحســابات النفس الطويل لابد للشجرة أن تقاوم قشعريرة الشتاء لأنه حتما سيأتى الربيع.

فــالألم جزء من الحياة كما يقول شــاعر الفارســية الكبير ســعدى الشيرازى:

إن كنت للناس لم تتألم   فكيف سميت نفسك بآدم

وأغلــق أبواب الغرفة الفارســية وأترك الأحلام والأســاطير عندما أسمع وقع أقدام قريبة منى. ربما كان صوت وقع أقدام أندرسون أو آمنة بنت ســالم أو أحد أفراد العائلة الكريتلية أو الفتاة الدمشــقية أو الفتى الفارسى. ولكن لا يهم فهم جميعا يعيشون هنا الكل فى واحد كما يقول النشيد المصرى القديم... نشيد الخروج إلى النهار.

❑❑❑

بيت الست وسيلة يتجمل

بيتها .. بيت الست وسيلة الذى يعيش بيننا إلى الآن فى حى الأزهر ناحيــة زقاق العنبة عند تفرعه من حارة الداويداوى بالقرب من منزلى الهوارى وزينب خاتون هو نفسه البيت الإسلامى المصرى الجميل الـذى يصر على الحيـاة برغم الكثير من التجاهل الذى لقيه لسـنوات طويلة من حياته.

والغريب - والعهدة على الراوى - أن البيت لم يكن فى الأصل بيت الست وسيلة خاتون أووسيلة خاتون بنت عبد الله البيضا معتوقة الست عديلة هانم زوجة الأمير سليمان أغا السلحدار فى عهد الوالى العثمانى عمر باشـا... ولكنها فيما يبـدو كانت آخر من ملكـه وعاش فيه قبل منتصف القرن التاسـع عشـر فى زمن عرفته مصر بزمن واليها محمد على باشا الكبير.

فالبيت فى الأصل قد بنى قبلها بسـنوات طويلة وظهرت أول حجة للبيـت لتشـير إلى إنه كان ملـكا للحاج عبد الحق وأخيـه لطفى أولاد المرحوم الكنانى. فبحسـابات التاريخ أنشئ هذا البيت فى نهاية القرن السابع عشر وتحديدا فى عام ١٦٦٣م إلا إنه ظل يحمل اسم وسيلة مثله مثل البيوت الإسلامية فى القاهرة التى مازالت تحمل أسماء نساء.

وإن كان هذا البيت كما يقول د.عبد الله كامل موسـى أسـتاذ الآثار الإسلامية له تميزه الذى جعله موضع اهتمام لجنة حفظ الآثار العربية

من قبل كما تناوله الباحثون الفرنسيون فى كتاب يحمل اسم «ثلاثة قصور من العصر العثمانى فى القاهرة» الذى صحح بعض المعلومات الخاصة بعمارة المنزل حيث إنه فى الأصل نموذج لتكوين سكنى بسيط.

وكعادة البيوت الإسلامية فى مصر المحروسة تبدو المداخل مصممة بشكل يستطيع من بالداخل أن يرى القادم وفى الوقت نفسه لا يستطيع أحد أن يتلصص عما يحدث فى البيت أويجرح حركة النساء، وعند دخولنا إلى البيت نقابل السلاملك وهو مكان مخصص لاستقبال الرجال وعلى مدخله توجد كلمة «ياالله» وأسفلها نقش مهدم كتب عليه «يا محمد».

على أبواب وسيلة:

يبدو أن المدخل الرئيسى كان هو المشكلة الأولى لهذا البيت الذى انخفض عن مستوى الشارع بأكثر من مترين نتيجة الردم والرصف.

كما أن وجود شبكات صرف متهالكة وارتفاع منسوب المياه الجوفية قد أدى لتسرب مياه على الحوائط.

فمشكلة بيت وسيلة هى تلك المعاناة الخاصة التى تعرفها بقية البيوت الباقية فى القاهرة.

وإن كانت المعضلة الحقيقية لا تتوقف عند هذا الحد فالبيت قد ظل مسكونا بالناس إلى بداية الثمانينيات وقد استخدمه البعض كمنطقة إيواء لمن تهدمت منازلهم.

وباستثناء المقعد الصيفى الذى بقى كجزء سليم فى البيت كانت هناك أجزاء داخلية منهارة أصبحت مقلبا لمهملات العمارات المجاورة... !

إلا إنــه أثناء عملية الترميم اكتشـفت بعض الأشـياء التى لم تكن معروفة ومنها الحوائط الموجودة فى المقعد الصيفى السلاملك التى يغلب عليها اللون الأزرق وهو اللون الأصلى على غير عادة البيوت.

أمـا مفاجأة البيـت الكبرى فهى وجود نماذج نـادرة من اللوحات الزيتيـة داخل البيت تعبر عن مناظر للأماكن المقدسـة بالحجاز حيث يوجد بالجزء الشـمالى للقاعة منظر لمسـجد الرسـول ﷺ مجتمعا مع مناظر أخرى لمنازل المدينة المنورة.

أمـا اللوحة الأخـرى فتمثل منظـر الكعبة المشـرفة والحرم المكى ومنازل مكة التى تحيط بالحرم بشرفاتها الصغيرة.

فهناك صدق للفن الذى أكده العثمانيون وإن كان يبدو أن الفنان الذى ابتدعها صاحب رؤى مصرية.

فهذه اللوحات التى تتيمن ببيوت مكة المكرمة والمدينة المنورة إنما تكشف مدى حب أهل مصر لساكنى هاتين المدينتين.

وقد ظلت هذه اللوحت محفوظة إلى أن استعين بخبراء اسـتطاعوا خلال سـتة أشـهر من العمل إرجاع اللوحات إلى حالتها الأصلية وإلى مكانها بالحرملك.

وبالرجوع إلى حجة البيت والصور والرسومات التى التقطت ورسمت للبيت منذ بداية القرن العشـرين .وبالمقارنة ببيـوت العصر العثمانى

أمكن التعرف إلى الكثير من تفاصيل البيت، وجمال كل ركن فيه وحتى الأبيات التى كتبت بمقاربة الأسـقف من بـردة البوصيرى التى كانت موجودة فى كثير من البيوت المصرية كنوع من البركة والدعاء ومدح فى الرسول ﷺ وهى تكشف إلى حد كبير مدى تدين المصريين.

فقد كان المصريون يبحثون عن الجمال وقد أضافوا لمساته إلى بيوتهم فى كل عصر، ولاننســى أن البيت يقع فى قلب القاهرة التاريخية. كما أن حالتــه قد بلغت من الخطورة مبلغـا كبيرا وخاصة فى وجود أجزاء مفصولة ومنها جزءالحمــام القديم الذى يعتبر من أهم الأجزاء النادرة فى هذا البيت.

والبيت فى الأســاس له واجهتان حجريتان إحداهما رئيســية من الناحية الشــمالية الشــرقية أما الأخرى فهى مــن الناحية الجنوبية الشــرقية تضم المدخل الحالى للبيت الذى يبدو بعيدا عن مواضع الحياة فى الشارع بالتزامه هذا الركن الهادئ.

وفى فناء المنزل يوجد ســلم حجرى ينتهى إلى مدخل هو فى حقيقة الأمر بــاب تعلوه نافذة، وعلى جانبى المدخــل أربع فتحات تفضى إلى حجرتــين تعلوهما قاعة لها فتحة دخول من الممر المنكســر الذى يربط بينها وبين المقعد. أما ضلعها الشمالى فيطل على الصحن وقد غطى المقعد برسومات هندســية خشبية أسفله إزار خشــبى عليه كتابات نسخية باللون الأبيض على أرضية زرقاء وقد خط عليها قوله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٥٥].(٢٧)

وأما الجدار الغربى فيحمل نصا إنشائيا بتاريخ بناء البيت وينسبه إلى عبد الحق وشقيقه لطفى أولاد المرحوم الكنانى الذين لم ينسب إليهم ملكهم للأسـف ولكن نسب إلى الست وسيلة التى كانت فيما يبدو أبرز من سـكن هذا البيت... والمشكلة التى أعتقد أننا نواجهها عند الحديث عن وسيلة وبيتها أن الكثير من قصص أهل البيت لا يعرفها أحد.

فهو بيت بسيط ولكنه فى بر مصر المحروسة التى عرفت الكثير من البشر الذين يتذكرهم إلى الآن الحجر.

فمشـكلة وسيلة وأخواتها أنها بيوت مصرية وأن مصر يفيض فيها كل شبر بالخاص والعام... فلسنا فى الحقيقة فى حاجة إلى مقهى ودف ونـاى وجمهور من كل حدب وصوب، لكـى نحكى عن أى من القصص المصرية ولكننا فقط أردنـا أن نتوقف عند بعض الحكايات التى ضاعت داخل جدران هذه البيوت.

❑❑❑

مقياس للوفاء

موعدنا

في جزيرة الروضة... جزيرة السفن والقصور التى شهدت ترف السلطان الغورى ومراد بك وحسن باشا المنسترلى منذ مئات السنين... حيث كان النيل وفى نهاية صيف كل عام لا ينسى أن يوفى بوعده مع المصريين.. وكان مقياس الروضة الذى يعد ثانى أقدم الأثار الإسلامية الموجودة فى القاهرة هو المبشر الذى يعلن للناس أن الخير فى طريقه إليهم وأن الوادى العظيم سوف يتمتع بحظه من الزراعة والحياة اللتين قسمهما الله تعالى لهما.

فقد كان هناك ما يشبه العرف بأن وصول منسوب النيل إلى ارتفاع ستة عشرة ذراعا هو إعلان لوفاء النيل. أما إذا كان أقل انخفاضا فهذا يعنى أن أيام التحاريق قد امتدت وأن شيئا من الجفاف سوف يفرض نفسه على بر مصر.

إلا أن الأيام تتغير وتدور دورتها على هذا المقياس صاحب النقوش الزخرفية البديعة بعد وجود السد العالى الذى أصبح الحامى الحقيقى لمصر من أيام التحاريق..ولهذا نسى الناس هذا المقياس الذى لم يعودوا يتذكرون حتى مكانه بعد كل هذه السنوات!

ونتذكر مع مقياس النيل الكثير من الذكريات المصرية الأصيلة التى يبدؤها كمال السيد فى كتابه: «القاهرة أسماء ومسميات» حيث يقول

إن أهل مصر طلبوا من عمرو بن العاص إلقاء بنت بكر فى النيل ليتحقق الوفاء فرفض وكتب إلى عمر بن الخطاب الذى أرسل إليه خطابا يقول فيه: من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر أما بعد... فإن كنت تجر من قبلك فلا تجر. وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك.

وألقيت فى اليم، وجاء الصباح بوفاء النيل وهى قصة معروفة بلا شك للجميع. إلا أن الجديد الذى يذكره المؤلف هو أن الحديث عن النيل قد تكرر فى المكاتبات بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص. فقد روى المقريزى أن عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب يقول:

(إن الاستبحار يدعو إلى الاحتكار والاحتكار يدعو إلى غلاء الأسعار. وإن النيل يروى أهل مصر ريا مريحا كاملا على الست عشرة ذراعا، وإن النهايتين المخوفتين للظمأ أو الاستبحار هما اثنتا عشرة ذراعا وثمانية عشرة ذراعا).

فأشار عليهما على بن أبى طالب كرم الله وجهه بأن ينشئ مقياسا بحلوان. فأنشئ مقياس صغير ثم بنى المقياس فى جزيرة الروضة فى خلافة سليمان بن عبد الملك. والعهدة على المؤلف وإن كانت بعض الكتب تشير إلى أنه أنشئ فى عهد الخليفة المتوكل.(٢٨)

أما الحكايات التى تروى عن احتفالات وفاء النيل وبحر الخليج ومقياس الروضة فهى كثيرة.

ففى العصر الفاطمى كانت تسـجل العلامـات يوميا وعندما يقترب النيل مـن الفيضان يذهب الخليفـة للمبيت فى المقيـاس .وتبدأ قراءة القرآن وإيقاد الشموع .وكان يخرج من قصره الكبير-كما يقول المؤلف- إلى باب زويلـة ثم حى الصليبة ليمر ببركتـى الفيل وقارون ثم يركب سـفينته ويذهـب إلى مقياس الروضة ليصلى ويضـع على عمود المقياس المسك والعنبر.

وبعدها فى العصر الأيوبى يتكرر الحدث ويركب السلطان سفينته إلى المقياس ويكون فى اسـتقباله مئات المراكب التى تحمل من أكبر كبير إلى أصغر صغير ويضع للمقياس المسك والعنبر ثم يأمر بفتح الخليج.

ومعنـى هذا أن فهم عمر بن الخطاب لطبيعة مصر والأراضى المصرية كان فهما وإدراكا صحيحا للأمور. ولهذا جاء الخلفاء والسلاطين من بعده ليتعاملوا مع نيل مصر وبرها بنفس مفردات التقدير والاحترام.

أمـا هذا المقيـاس فكان فى الأصل هبة جميلة تضـاف إلى مصر وقد صممـه المهندس أحمد بن محمد الحاسـب ليشـهد علـى براعة الفنان المعمارى المسلم الذى أنشأ مثل هذا المبنى فى النيل على ثلاثة مستويات.

أولها المسـتوى الأول وهو دائرى ثم المسـتوى الثانى والثالث وهما على شـكل مربع ويتوسـطه عمـود رخامى مدرج مـدون عليه علامات القياس وعليه كتابات بالخط الكوفى وهو ثمانى الأضلاع مثبت فى وسط بئر بواسطة عقدين يرتكزان على حائط البئر من الداخل.

والعمود مقسم إلى تسع عشرة ذراعا. ويوجد فى جدران المقياس ثلاث فتحــات بالقرب من القاع تزينها عقود مدببــة ترتكز على أعمدة تصل إلى النيــل عن طريق قنوات يتم من خلالها دخــول المياه لبئر المقياس، والمقياس من الناحية المعمارية يعتبر معجزة وقد تم بدء بنائه فى موسم التحاريق حيث كانت نسبة المياه منخفضة باستخدام خشب الجميز فى البناء الذى اتضح أنه يمتص المياه ولا يتأثر بها.

وقد شــيد المقياس من أسفل على شكل دائرى حتى يتحمل شدة تيار المــاء فلا تتفتت جدرانه ثم تحول المعمارى بالمســتويين الثانى والثالث إلى الشكل المربع.

ويضم المقياس فنون العمارة الإسلامية كلها بدءًا. من العصر الإسلامى الأول وحتى العصر الحديــث بعد أن جددته لجنة الآثار العربية وقام الأثريون بإجراء صيانات وترميمات دورية له.

إلا أن أول هــذه الترميمــات والإصلاحات تعــود إلى الطولونيين ثم إلى بــدر الدين الجمــالى وزير الخليفة المســتنصر عندمــا بنى بجواره المسجد المعروف بمسجد المقياس والذى دمر إثر انفجار بمصنع للبارود بالجزيرة عام ١٨٣٠م.

وفى العصر المملوكى شيد الظاهر بيبرس قبة على البئر ثم قام سليم الأول فــى العصر العثمانى بإجراء بعض الإصلاحــات التى أتمها فيما بعد الأمير على بك الكبير خاصة فى عمود المقياس.

ويقال إن حمزة باشا تابع التجديدات ولكن فى العتب الخشبى الذى يربط بين الجدران لتدعيم عمود المقياس من أعلى هذه المرة.

وحتى الحملة الفرنسية كانت لها بصمتها على المقياس. كما تحكى الأثرية سلوى حيرم. فكما قال الجبرتى إنهم غيروا من معالمه وبنوا القاعة التى بها العمود بشكل لا بأس به.

وفى العصر الحديث قامت لجنة حفظ الآثار بعمل إصلاحات شاملة نتيجة حدوث هبوط فى العمود وأقامت عليه هذا الغطاء الهرمى الذى يشاهد عليه الآن. واستمرالحال إلى أن جاء زمن السد العالى فأحال هذا المقياس للاستيداع بعد قرون طويلة من العمل المضنى وفاء للرسالة المصرية، وإن كان اليوم يستمر كمزار أثرى لا يعلم عنه الناس الكثير.

إلا أن هناك من يعود كالدكتور محمد إبراهيم بكر أستاذ الآثار الإسلامية ليؤكد أن الفكرة أولا مصرية. والمقياس له نظير فى أسوان، وإنه كان هناك دائما منذ عصر الفراعنة الموظفون المكلفون بمتابعة عملية ارتفاع الفيضان لتبليغ مدينة منف بما يحدث.

والمقياس الموجود فى أسوان موجود على صخور جرانيت أسوان فى جزيرة فيلة وعليه نفس العلامات المصرية القديمة. وقد أعيد استعماله فى العصور التالية وهناك مقياس فى اتجاه الجنوب عند معبد إيزيس الشهير الذى نقل بعد أن تعرض للغرق بعد السد العالى، وبعيدا عن هذه المجادلة العلمية، فالمعروف أنه كان لمقياس النيل جهاز إدارى عالى المستوى يقوم بعملية القياسات، حتى إذا وصل ارتفاع النيل عند الحد اللازم للمياه يكون النيل قد أوفى بوعده ويقام احتفال كبير.

فقد كان كل شىء يتوقف على هذا المقياس وتبليغ موظف الرى فى مصر القديمة للقيام بالزراعة فى أراضى مصر.

كمـا كان لهذه المقاييس أهمية كبيرة أيضا في تحديد الضرائب. فلا يمكـن فرض ضرائـب باهظة على الفلاحين إذا لم يوف النيل واسـتمر الحال حتى بناء سـد أسوان. فكان يجب مراقبة الارتفاعات حتى يأخذ النـاس حذرهم فلا يداهمهم الفيضان وحتى يمكن للدولة المصرية فرض الضرائب وهي مطمئنة على حال الأراضي والزراعة والخير في بر مصر.

فقـد كان في الأزمنـة الفرعونية الأولى يعتقدون في أسـاطيرهم أن الفيضان يأتي من دموع إيزيس حزنا على وفاة زوجها. وكانوا يعتقدون أيضـا أن مياه الفيضان تنفجر من خلف جزيرة فيلة وأن مصدرها عيون ضخمة تحت الأرض.

وبـدون الفيضان كانت البلاد والعباد يعانون من قحط شـديد. وكان هذا يعني في أهون تقدير أن شرا ألم بأهل الأرض وأن الوفاء يعني الماء والطمي اللذين لا تصح الأرض بدونهما.

أمـا إذا جاء الفيضان فقـد كانوا ينتظرون بعـد أن ينتهي الفيضان وتنسـحب المياه من الأراضـي. فالحياة كانت تبدو مشـلولة لمدة ثلاثة أشـهر وهي وقت الفيضان بعدها تنحسر المياه وتذهب إلى البحر. وتظل الأرض رطبـة وتبدأ في الجفاف قليلا فتنشـأ الحياة الزراعية وتخضر الأرض بعد طول انتظار.

ولا غرابة في هذا فقد كان كل شيء في مصر مقسما إلى مواسم باسم الطبيعة. ولهذا كانت هناك ثلاثة مواسـم وليسـت أربعة وهي موسـم الفيضان وموسم الزراعة وموسم الحصاد.